مختارات من نص مقال لونجينوس النقدى

الفصل الأول

« إن الرفعة Hypsos = Sublimity تكمن امتياز خاص وتفوق فى التعبير لاينبع من أى مصدر آخر سوى من هذا المصدر الذى يستمد منه أعظم الشعراء والمؤرخين امتيازهم ويحققون عن طريقه الشهرة الخالدة . ذلك أن أثر اللغة السامية على السامعين لايكمن فى استمالتهم بل فى خلب ألبابهم ، وإن ما ينقلنا إلى العجب والدهشة فى كل وقت وبشتى الطرق لهو أشد أثرًا مما يستميلنا أو يرضينا . وفى العادة فإن بوسعنا التحكم فى الاستمالة ، لكن أثر هذه الأجزاء السامية يكمن فى قوتها التى لاتقاوم وفى امتيازها وفى سلطانها الذى تبسطه على كل مستمع .

وبالمثل فإن المهارة فى الابتكار والترتيب السليم وتنظيم المادة أمور لاتتجلى فى مجرد لمسة واحدة ماهرة هنا أو هناك ، ولكنها تكشف عن نفسها بدرجات متأنية من خلال نسيج التركيب بأسره . ومن ناحية أخرى فإن شرارة الرفعة التى تشرق فى اللحظة المناسبة ، تبعثر أمامها كل شئ كنور البرق ، وفى ومضة واحدة تكشف لنا قوة المتحدث فى كل كمالها » .

الفصل الثانى

« قبل أن أمضى (فى حديثى) قُدمًا أرى لزامًا علىّ أن أطرح سؤالاً : هل هناك ما يمكن أن نطلق عليه اسم الفن السامى أو الفن الرفيع ؟ ذلك أن البعض يعتقدون أن من يتحدثون عن أمور من هذا القبيل بغية وضع قوانين للفن ليسوا على صواب ؛ فالعبقرية فى نظرهم أمر فطرى وليست بالموضوع الذى يمكن أن يُعلم وأن الطبيعة دون سواها هى المتسببة فى وجودها . ويرون كذلك أن الأعمال الناتجة من العبقرية تفسد حينما يتم إخضاعها لقواعد (صماء) وقوانين جافة .

ولكنى أعتقد رغم ذلك أن هناك وجهة نظر مخالفة ، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الطبيعة رغم كونها خاضعة فى الأساس لقوانين هى من صنعها ، عندما يكون الأمر متعلقًا بالإحساسات السامية ، إلا أنها ليست متروكة فى فعلها للصدفة

العشوائية دون قاعدة أو نظام . حقًا إن الطبيعة هى المنشأ الأول والمبدأ الأساسى الخلاق الذى تنبع منه كل الأنشطة الحيوية ، ولكن وظيفة المنهج هى تحديد درجة النشاط واللحظة المناسبة له ووضع القواعد الواضحة للاستخدام والتطبيق.وعلاوة على ذلك فإن الدوافع السامية تكون عرضة لأخطار جسام حينما تترك لشأنها ، دون أن تحظى من المعرفة بما يكفل لها الاستقرار والتوازن : إنها تحتاج لشكيمة تكبح جماحها بنفس القدر الذى تحتاج به إلى مهماز يحثها على الانطلاق .

وإن ديموسثينيس ،عندما يتطرق للحديث عن حياة البشر بوجه عام ، يعلن أن أعظم النعم على الإطلاق هى الحظ السعيد ومن بعده مباشرة يأتى النصح السديد ، الذى لايقل عن الحظ أهمية ؛ حيث إن غياب النصح يقود إلى دمار محق يذهب بكل الخير الذى يأتى به الحظ . ولو طبقنا هذه المقولة على الأسلوب يمكننا القول بأن الطبيعة تعادل فى المكانة الحظ السعيد ، وأن الفن (= المهارة) يعادل النصح السديد. ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أن بعضًا من المؤثرات اللغوية المستمدة من الطبيعة وحدها ، لايمكن الحصول عليها من أى مصدر آخر سوى الفن . . . . . » .

الفصل الثالث

« والآن فيما يخص التراچيديا التى هى بطبيعتها سامية جليلة ، فرغم كونها تسمح بشئ من فخامة الأسلوب ؛ إلا أن اللجوء إلى الأسلوب الطنان فيها فى غير موضعه أمر لايغتفر ، فهذا الأسلوب الطنان قد يكون أقل ملاءمة فيما أعتقد بالنسبة للسرد الواقعى . لهذا السبب يضحك الناس على جورجياس من ليونتينى (ريتوريقى وسوفسطائى صقلى من القرن الخامس ق . م.) حينما يكتب : « اجزركسيس ، زيوس الفرس » ، أو حينما يصف الصقور بأنها « قبور حية » . وبالمثل فهناك تعبيرات معينة للمؤرخ كاليسثينيس (مؤرخ حملة الاسكندر الأكبر ، عاش فى الفترة من أواخر القرن الرابع إلى أوائل القرن الثالث ق . م .) تدعو للسخرية بسبب أنها طنانة غير سامية . وأكثر منها مدعاة للسخرية بعض تعبيرات كليتارخوس (مؤرخ معاصر لكاليسثينيس) ، وهو كاتب عابث - على حد تعبير سوفوكليس - « يعزف على مزمار دون أن يمتلك القدرة على ضبط النفخ » . . . إن أمثال هؤلاء الكُتّاب يظنون فى أنفسهم الإلهام ، ولكنهم ليسوا ملهمين بحال من الأحوال ، بل إنهم فى مسلكهم أقرب إلى التصرف

الصبيانى . إن الأسلوب الفخيم الطنان هو بوجه عام أفظع المثالب التى ينبغى الاحتراس من الانزلاق إليها ، فكل أولئك الذين يهدفون إلى العظمة بشكل أو بآخر أملاً فى الهروب من تهمة فقر الأسلوب وجفافه ، يسقطون بطبيعة الحال فى هوة الأسلوب الطنان ، وكأنهم يؤمنون بالمثل القائل : « إن العجز عن بلوغ هدف عظيم هو على أية حال فشل نبيل » . إن التورم يعتبر أمرًا مذمومًا سواء فى الجسم البشرى أو فى الأسلوب (الأدبى) . . . .

الأسلوب الطنان إذن ما هو إلا نتيجة للرغبة فى التفوق على الأسلوب الرفيع . وفى المقابل فإن الركاكة تقف على طرفى نقيض من العظمة ، حيث إنها تنم عن روح ضحلة وتكشف عن قلب خاوٍ ؛ وهو (ما نعتبره) أشد الأخطاء جسامة وأكثرها مدعاة للازدراء . ما هى الركاكة إذن ؟ إنها بالتأكيد ليست إلا مجرد فكرة يتم تنميقها بتحذلق إلى أن تسقط فى مهاوى البرود والفتور ! إذ ينزلق الكتاب إلى هذا النوع من الخطأ حينما يجهدون أنفسهم فى البحث عن تأثيرات منمقة وغير عادية ، وينشدون فوق كل اعتبار الاستمالة والإبهار ؛ لكنهم بدلاً من بلوغ ذلك الهدف يسقطون فى شراك الأسلوب المزخرف الفخم وفى مهاوى الحذلقة والتكلف .

. . . . وهناك نوع ثالث من الأخطاء التى تعوق الوصول إلى الأسلوب الرفيع ، وهو ما يعرف بالإحساس الكاذب أو نقيض صدق الإحساس : فالكُتّاب يسرفون فى الشحن العاطفى لموقف لايتطلب كثرة الأحاسيس ، أو على العكس من ذلك يبترون العاطفة حيث ينبغى إثراؤها أو إبرازها . وبعض الكُتّاب - كما لو كان واقعًا تحت تأثير السُكْر - يتفجر بالعاطفة فى سياق تبدو فيه الأحاسيس زائدة وبلاضرورة ، فيحس الناس أنه مضجر ممل : ففى الوقت الذى يصل فيه الكاتب إلى قمة الانفعال يكون جمهوره أبعد ما يكون عن هذا الإحساس . وعلى أية حال فإننى أترك كل القضايا المتعلقة بالأحاسيس والمشاعر لأفرد لها دراسة قائمة بذاتها فى موضع آخر » .

الفصل الخامس

« إن معظم أوجه القصور فى الأدب ترجع إلى سبب واحد ، هو الولع الشديد بالأفكار الجديدة إلى درجة الجنون ، هو أمر سائد بين كُتّابنا فى الآونة الحاضرة : فالحق أن مثالبنا تنبع فى مجملها من نفس المصادر التى تنبثق منها فضائلنا . وهكذا فإن

الأسلوب الرفيع والمدركات السامية والتعبيرات الممتازة تهدف كلها إلى التأليف المؤثر ، ومع ذلك فإن نفس هذه الأمور التى ذكرناها هى الأساس وهى الأصل ، لا فى النجاح فقط بل أيضًا فيما هو عكس ذلك . . . . . » .

الفصل السابع

« ينبغى أن يكون مفهومًا ، أيها الصديق العزيز ، أنه لاشئ يبلغ - فى الحياة البشرية - من العظمة حدًا يمنعنا من ازدرائه ؛ وكذلك الحال مع الأسلوب الرفيع . فالثروة والشهرة والسلطة وكل ما نضعه فى حياتنا موضوع الصدارة وما نصفه بالروعة ، كلها أمور قد لاتبدو فى نظر الرجل الحكيم نعمًا عظيمة ، حيث إن الترفع عن السعى إليها يعتبر فضيلة محمودة. ومما لاشك فيه أن الناس ينظرون بعين الإكبار إلى من يمتلك هذه النعم ، غير أن إعجابهم يزداد بمن يكون بوسعه امتلاكها ولكنه من الحكمة بحيث يعزف عن حيازتها .

لابد لنا إذن من النظر إلى الأدب وإلى الأسلوب الرفيع باعتباره أمرًا مماثلاً : فهناك من الأعمال ما يثقله مؤلفه بالمحسنات ذات البريق ويدونه بالأسلوب الفخيم الطنان سعيًا وراء السمو ، ولكن أجزاء (كثيرة) منه تعجز عن منحنا الإحساس بعظمته وتأثيره رغم سعى الكاتب لبلوغ هذا الهدف . وفى المقابل هناك أعمال أخرى تصل إلى التأثير المطلوب ببساطة متناهية ورفعة حقيقية بدون البريق ولا الطنطنة . وفى الحالة الأولى نكون أقرب إلى ازدراء العمل رغم سعى كاتبه لإبهارنا ، أما فى الحالة الثانية فنجد أنفسنا منساقين إلى الإعجاب بالعمل .

إن الرفعة الحقيقية تسمو بأرواحنا عن طريق قوة فطرية ، فنمتلئ إعجابًا وتحلق مشاعرنا إلى آفاق أسمى ، ونحس بزهو وسعادة كما لو كنا نحن الذين ابتكرنا بأنفسنا ذلك الأسلوب الذى سمعناه (أو قرأناه) . فعندما يسمع إنسان ذكى ومثقف مقطوعة أدبية عدة مرات دون أن تمس مشاعره ، ودون أن تخلق لديه الإحساس بالسمو أو تمده بزادٍ يغذى عقله أبعد من الكلمات المدونة بها ؛ وحنما يكتشف أنه كلما أخضعها للفحص الدقيق المتأنى كلما فقدت تأثيرها اللحظى عليه ، فمعنى هذا أن مثل هذه القطعة الأدبية لايمكن اعتبارها مثالاً حقيقيًا على الأسلوب الرفيع ، لأنها ببساطة لاتظل حية بعد سماعها للمرة الأولى .

إن المقطوعة الأدبية تكـون فعلاً سامية حينما تصمد طويـلاً أمام الفحص المتكرر ، وعندما يكون من الصـعب - أو بالأحرى من المستحيل - مقاومة تأثـيرها وقدرتها على الجذب ، وعندما تظل دومًا ثابتة فى ذاكرتنا دون أن تفلح قوة ما فى محوها أو طمسها . وبوجه عام يمكن القول بأن عظمة التعبير تكمن حقًا فى تلك الأعمال التى تمتع الناس فى كل العصور والأوقات : فعندما يوجد أشخاص يختـلفون فى مهنهم وفى طرائق حياتهم وفى طموحـاتهم وفى أعمارهم وفـى لغاتهم ، ويفكـرون رغم ذلك بنفس الطـريقة فى حكمهم على نفـس العمل الأدبى ، فمعنى ذلك أن الحكم الجماعـى الصادر عنهم على الأسلوب الأدبى هـو حكم صائب لايتزعزع ، وأن إعـجابهم به لايمكن أن يـكون وليد المصادفة بل هو إعجاب موضوعى مرتكز على أسس ثابتة ودعائم وطيدة .

الفصل الثامن

« قد يُقال إن هناك وبصفة خاصة خمسـة مصادر مثمرة للأسلوب الرفيع ، وتحت هذه المصادر الخمسة تقـوم السيطرة على اللغة كأساس مشتـرك ، إذ بدونها لايمكن عمل شئ يستحـق الذكر . أول هذه المصادر وأهمهـا هو المقدرة على خلق تـصورات سامية - كما أوضحت فى تعليـقى على«كسينوفون». ويأتى فى المرتبة الثانـية الدافع إلى العاطفة القوية والملـهمة ؛ وهذان العنصران مـن عناصر الرفعة فطـريان لدرجة كبيرة جدًا بـينما العناصر الـباقية ثمرة من ثمار الـفن (= الخبرة أو المهارة) . ونعنى بـذلك الاستخدام المناسـب لطرازين مـن طرز الريتـوريقا (= البـلاغة) : الأسلوب الـبلاغى للـفكرة ، وأسلوب التعبير اللـفظى جنبًا إلى جنب مع ابتكار البيان العـظيم ، الذى يتحول بدوره إلى اختيار الألفاظ واسـتخدام المجاز وتنميق الأسلوب . أما المصـدر الخامس الذى يضم كل تلك العناصر فقد ذكرته توًا ، وهو التأثير الشامل الناتج عن الجلال والرفعة ... » .

الفصل التاسع

« السمو هو صـدى التفكير العظيـم . وعلى هذا فحتى دون كلام يُلـفظ فإن فكرة بسيطة يمكن أحيانًا بمفردها أن تثير الإعجاب بـسبب صدورها عن العقل النبيل الذى عبر عنهـا . وعلى سبيـل المثال فإن صمـت أياس عند « اسـتحضار أرواح الموتـى » صمت جـليل ، أكثر سموًا من أية كلمات .

وفى البداية نجد من الضرورى بكل تأكيد أن نوضح مصدر تلك المقدرة ونبين كيف أن الشخص المفوه حقيقة يتمتع بعقل ليس وضيعًا ولامحتقرًا . فليس من اليسير على أولئك الذين يتصفون طوال حياتهم بالأفكار المتداعية والأهداف الوضيعة أن يبدعوا شيئًا يثير الإعجاب أو يصبح جديرًا بالشهرة الخالدة . . . .

وكذلك فإن من وهب اليهود ناموسهم ، وهو ليس بالشخص العادى ، عندما صاغ مفهومه السامى عن قدرة الرب المقدس ، منح هذا التصور تعبيرًا مميزًا حينما كتب فى بداية أسفاره : « قال الله . . . . ماذا قال ؟ ليكن هناك نور ، فكان هناك نور . ولتكن هناك أرض ، فكانت هناك أرض » .

الفصل الخامس والثلاثون

« لقد صاغتنا الطبيعة نحن بنى البشر ، لا لكى نغدو مخلوقات حقيرة أو وضيعة ؛ بل إنها أدخلتنا إلى الحياة وإلى الكون المترامى الأطراف كما لو كانت تدعونا إلى حضور احتفال عظيم مهيب ، كى نصبح فيه بمثابة المشاهدين لكل ما قامت هى (أى الطبيعة) بخلقه ، ولكى نصير أكثر الكائنات شوقًا إلى الشهرة . وهكذا زرعت الطبيعة فى أرواحنا منذ البدء عاطفة لاتقهر لكل ما هو عظيم وتجاه كل ما يفوقنا قدسية .

ومن أجل هذا السبب فإن الكون بأسره لايكفى للتأمل والتفكر الكامن فى مجال الطاقة البشرية ؛ وإن فكرنا ليتجاوز الحدود التى خلقنا فى نطاقها . ولكن إذا ما تفحصنا الحياة من كل جوانبها لنرى كيف أن كل أمر يتعلق بنا - مما هو غير عادى وجليل وجميل - يلعب دورًا رائدًا فى حياتنا ، فسوف نتحقق آنذاك من مغزى الخلق . . . . » .

الفصل الرابع والأربعون

« من اليسير ، ياسيدى الفاضل ، وهذا أمر وثيق الصلة بخصال البشر وطبيعتهم ، أن ننقب عن الخطأ فى العصر الراهن الذى فيه نحيا . ومع ذلك فعلينا أن نفكر فيما إذا كان السلام الذى ينعم به عالمنا هذا الآن هو المتسبب حقًا فى إفساد السجايا النبيلة ! فى اعتقادى أن هناك ما هو أكثر بالأحرى من ذلك ، ألا وهو تلك الحرب التى لانهاية لها

والتى تستحوذ على رغباتنا فى قبضتها . بل وأبعد من ذلك فإن السبب هو الأهواء التى تزخر بها حياتنا المعاصرة والتى تخرب هذه الحياة تخريبًا كاملاً . إن حب المال - العلة التى لاترتوى والتى نعانى منها جميعًا بشدة - وكذلك حب المتعة يجعل منا عبيدًا ، لهذه الأهواء ، وبالأحرى يمكننا القول بأنها تجرنا جسدًا وروحًا إلى الأعماق . إن حب المال وعشق الثراء مرض يهوى بنا إلى الانحطاط الفكرى ، وحب المتعة يجعل منا مخلوقات أشد ما تكون وضاعة . . . . » .

« وباختصار فأنا أؤكد أن ما يستنفد روح الجيل الحالى هو اللامبالاة التى نصرف فيها جميعًا - فيما عدا حالات استثنائية - حيواتنا ؛ فنحن لانعمل ولانبدى أى بادرة على العمل من أى دافع آخر خلاف تلك الدوافع التى تلقى الثناء من ملذاتنا ، أو التى بوسع ملذاتنا أن تجد فيها المتعة . إننا لانعمل على الإطلاق بدافع من الحماس والرغبة النبيلة المشرفة لخدمة بنى أرومتنا (من البشر) . . . . » .